

الدرس الرابع والعشرون

عصمة الأنبياء.

- ضرورة صيانة الوحي .
- سائر مجالات العصمة .
- عصمة الأنبياء .

ضرورة صيانة الوحي

بعد أن أثبتنا ضرورة الوحي كطريق يتوصل من خلاله إلى مدركات ومعلومات لازمة تسد بها نقصان الحس والعقل الانساني ، تبرز مسألة أخرى.

فمع ملاحظة أن الأفراد العاديين لا يمكنهم الاستفاداة من وسيلة المعرفة هذه ، ولا يمكنون الاستعداد لتلقي الوحي الإلهي^(١) ، لذلك كان من الضروري ابلاغهم الرسالة الإلهية بوساطة أفراد معينين (الأنبياء) ، ولكن ما هو الضامن لصحة هذه الرسالة؟ وكيف نطمئن إلى أن النبي قد تلقى الوحي الإلهي بصورة صحيحة ، وأنه أبلغه للناس بصورة صحيحة؟ وإذا كانت هناك واسطة بين الله والنبي ، فكيف نطمئن إلى أنها أبلغت الرسالة للنبي بصورة صحيحة؟ ذلك لأن الوحي إنما يكون مؤثراً في سد نقصان المعرفة البشرية فيما لو كان مصنوعاً - من مرحلة الصدور إلى مرحلة الوصول للناس - من أي تحريف أو تلاعب أو تشويه ، عمداً أو سهواً ، وإنما مع احتمال السهو والنسيان في الواسطة أو الوسائل ، أو تلاعبهم العمدي في محتواه ، ستثار في أذهان الناس احتمالات الخطأ والتشويه في الرسالة الوالصالة إليهم ، وتؤدي هذه الحالة إلى تزعزع الثقة بها ، والاعتماد عليها . إذن ، فمن أي طريق يمكن الاطمئنان إلى وصول الوحي الإلهي للناس بصورة صحيحة وسليمة؟

ومن البديهي أنه عندما تكون حقيقة الوحي مجهولة للناس ، ولا يتتوفر فيهم الاستعداد لتلقيه ومعرفته ، فلا يكون هناك اي طريق للمراقبة والاشراف

(١) يقول القرآن الكريم في ذلك: **«وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَطْلَعُكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكُنَّ اللَّهُ يَعْلَمُ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ»** (آل عمران/١٧٩).

على الوسائل ليتعرف على مدى صدقهم. أجل.. في صورة واحدة يمكن التعرف على وجود اختلال او خطأ في الوحي، وذلك فيما اذا كان محتوى الرسالة مخالفًا لأحكام العقل اليقينية، كما لو أدعى أحد بأنه اوحى له من الله بأن اجتماع النقيضين جائز، أو واجب، او (والعياذ بالله) أن ذات الله معرضة للتراكيب، أو الروال، فيمكن في هذه الحالة أن ثبت كذب هذا الأدلة بالاستعانة بحكم العقل اليقيني. ولكن الحاجة الرئيسة للوحي، تمثل في المسائل التي لا طريق للعقل في الوصول لإثباتها أو نفيها، والتي لا يمكنه - من خلال تقويمه لمحتوى الرسالة - تحديد مدى صحتها وسقемها. اذن، فمن أي طريق يمكن ان ثبت - في مثل هذه المجالات - صحة محتوى الوحي، وصيانته من التشويه والتلاعب والتحريف العمدي أو السهوي؟

الجواب: إنه كما أن العقل، مع ملاحظته للحكمة الإلهية - وفق البرهان الذي ذكرناه في الدرس الثاني والعشرين - يدرك ضرورة وجود طريق آخر، لمعرفة الحقائق والوظائف العملية وإن لم يتعرف على كنه هذا الطريق وحقيقة، فإنه يدرك - أيضاً - أن الحكم الإلهية تقتضي وصول هذه الرسالة للناس بصورة سلية وصحيحة، دون أن تتعرض لأي تلاعب وتشويه، وإلا لزم نقض الغرض.

وبتعبير آخر: بعد أن عُلِمَ أن الرسالات الإلهية، لا بد أن تصل إلى الناس من خلال واسطة أو وسائل، حتى تتوفر الظروف والأجواء الملائمة للتكامل الاختياري للناس، ولتحقيق بذلك الهدف الإلهي من الخلق، فإنه - وبملاحظة الصفات الكمالية الإلهية - يثبت أن هذه الرسالة يلزم أن تكون مصنونة من التشويه والتلاعب العمدي والسهوي، ذلك: لأنَّ الله تعالى لو لم يرد وصول الرسالات بصورة صحيحة إلى العباد لكان هذا مخالفًا للحكمة، والإرادة الإلهية الحكيمية تنفي ذلك وإذا كان الله لا يعلم عن أي طريق أو أي شخص يبلغ رسالته، لتصل سلية إلى عباده فهذا ينافي علم الله اللامتناهي، وإذا لم يقدر على اختيار وسائل صالحة لحفظها وصونها من شرور الشياطين، فإنَّ هذه الحالة لا تتلاءم وقدرته اللا محدودة.

إذن فمع ملاحظة أن الله عالم بكل شيء لا يمكن أن نتحمل عدم علمه بأخطاء الواسطة التي يختارها^(١)، ومع ملاحظة القدرة الإلهية غير المحدودة لا يمكن أن نتحمل عدم قدرته على صيانة وحيه من تلاعب الشياطين، وتأثير عوامل السهو والنسيان فيه^(٢)، ومع ملاحظة الحكمة الإلهية، لا يمكن أن نقبل أنه لا يريد حفظ رسالته من الخطأ^(٣)، إذن فالعلم والقدرة والحكمة الإلهية كلها تقضي وصول رسالته بصورة سلية وصحيحة إلى عباده. ومن هنا ثبت صيانة الوحي بالبرهان العقلي.

وبذلك - أيضاً - ثبت صيانة ملوك أو ملائكة الوحي والأنبياء في مجال تلقي الوحي، وكذلك ثبت عصمتهم من الخيانة العمدية، أو من السهو والنسيان، في مجال إبلاغ الرسالة الإلهية.

ومن هنا يتضح لنا السبب في تأكيدات القرآن الكريم على أمانة ملوك الوحي، وقدرته على حفظ الأمانة الإلهية، ودفع تأثيرات الشياطين وأمانة الأنبياء، وبصورة عامة يتضح مما ذكرناه تأكide على صيانة الوحي والحفظ عليه حتى وصوله للناس^(٤).

سائر مجالات العصمة

إن العصمة التي أثبناها بالبرهان السابق للملائكة والأنبياء (ع) مختصة ب المجال تلقي الوحي وإبلاغه، وهناك مجالات أخرى عصمة لا ثبت بها

(١) يقول القرآن الكريم في ذلك: «الله أعلم حيث يحمل رسالته» (الأنعام / ١٢٤).

(٢) يقول القرآن المجيد في ذلك: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْرِهِ أَحَدًا» إلا من أرتفع من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً» (الجن ٢٦ - ٢٨).

(٣) «لَيَهِلَكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ يَتِيمٍ وَيَحْمِي مَنْ حَيٌّ عَنْ يَتِيمٍ» (الأنفال / ٤٢).

(٤) الشعراء / ١٩٣، والتكوير / ٢١، والأعراف / ٦٨، والشعراء / ١٠٧ و ١٤٣ و ١٢٥ و ١٦٢، والدخان / ١٨، والتكوير / ٢٠، والنجم / ٥، والحاقة / ٤٤ - ٤٧، والجن / ٢٦ - ٢٨.

البرهان ويمكن تقسيمها الى ثلاثة أقسام:

أحدها: مرتبط بعصمة الملائكة.

وثانيها: مرتبط بعصمة الانبياء.

وثالثها: مرتبط بعصمة بعض الافراد أمثال الأنئمة المعصومين (ع)، ومريم وفاطمة الزهراء (سلام الله عليهما).

ففي مجال عصمة الملائكة: يمكن البحث في مسائلين غير تلقي الوحي وإبلاغه:

إحداهما: عصمة ملائكة الوحي فيما لا يتعلّق بتلقي الوحي وإيصاله.

وثانيتها: عصمة سائر الملائكة الذين لا علاقة لهم بالوحي، وإنما هم مكلفوون بالرزق وكتابة الأعمال أو قرض الأرواح وغيرها.

وكذلك حول عصمة الأنبياء فيما لا يتعلّق برسالتهم، يمكن البحث في مسائلين:

إحداهما: عصمة الأنبياء من الذنب والمعصية.

والأخري: عصمتهم من السهو والنسيان.

وهاتان المسائلتان يمكن البحث فيها بالنسبة لغير الأنبياء أيضاً.

أما المسائل المتعلقة بعصمة الملائكة في غير مجال تلقي الوحي وابلاغه، فيمكن معالجتها بالبرهان العقلي فيما لو تعرّفنا على حقيقة الملائكة، ولكنّ البحث عن حقيقتها - كما أنه ليس يسيراً - فهو غير مناسب لبحوث هذا الفصل، ومن هنا نكتفي بذكر آيتين تدلّان على عصمة الملائكة، وهما الآية (٢٧) من سورة الأنبياء:

﴿هَبَلْ عِبَادُ مُكَرَّمُونَ لَا يَسِيقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَنْوَهٍ يَعْمَلُونَ﴾.

والآية (٦) من سورة التحرير:

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَنْهَمُهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمِرُونَ﴾.

وهاتان الآيتان تدلّان بصرامة على أنّ الملائكة عباد مكرمون، لا يعملون إلّا بالأمر الإلهي، ولا يعصون أمره، وإن بقي التساؤل حول تعميم الآيات لجميع الملائكة.

وأما البحث في عصمة بعض الأفراد (غير الأنبياء) فأنه يناسب بحث الإمامية، ولذلك فنبحث هنا في خصوص المسائل المتعلقة بعصمة الأنبياء، وإن كانت بعض هذه المسائل لا يمكن معالجتها إلا بالأدلة النقلية والتعبدية، ولذلك لا بد من دراستها بعد إثبات حجية الكتاب والسنة، ولكن لأجل مراعاة التناسب بين موضوعات المسائل نبحثها في هذا الفصل، ونقتبّل حجية الكتاب والسنة كأصل موضوعي نوكيل مهمّة البحث في إثباته إلى موضعه.

عصمة الأنبياء

هناك خلاف بين الفرق الإسلامية حول مدى تزويه الأنبياء عن ارتكاب المعاصي والذنوب. فالشيعة الإمامية يعتقدون بأنَّ الأنبياء معصومون من جميع المعاصي؛ صغيرها وكبیرها، من حين الولادة حتى الوفاة، فلا تصدر منهم المعصية حتى سهواً ونساناً، ولكنَّ هناك فرقاً آخر، تذهب إلى عصمة الأنبياء من الكبائر فحسب، وبعضهم من حين البلوغ، وبعضهم من حين النبوة. ونقل عن بعض الفرق من أهل السنة (وهم الحشوئية وبعض أهل الحديث) أنهم ينكرون عصمة الأنبياء تماماً، ويذهبون إلى امكان صدور المعصية منهم عمداً حتى في فترة نبوتهم.

وقبل البحث في إثبات عصمة الأنبياء (ع) تلزمـنا الاشارة إلى بعض الملاحظات:

الأولى: لا يعني بعصمة الأنبياء أو غيرهم؛ عدم ارتكاب المعصية، إذ من الممكن أن لا يرتكب الفرد العادي معصية خلال عمره كله، وخاصة لو كان عمره قصيراً، بل يعني به توفُّره على ملَكة نفسانية قوية، تمنعه من ارتكاب المعصية حتى في أشدِّ الظروف، وهي ملَكة تحصل من وعيه التام والدائم بقبح المعصية، وإرادة قوية على ضبط الميول النفسية، وبما أنَّ هذه الملَكة لا تتحقّق إلا بعنايةٍ إلهيَّة خاصة، لذلك تُنسب فاعليتها إلى الله تعالى، وإنَّ الله لا يمنع الإنسان المعصوم عن اقتراف المعصية جبراً، ولا يسلب منه الاختيار، وقد نسبَت الله عصمة بعض الأفراد الذين يمتلكون مناصب إلهيَّة كالنبوة والإمامية بمعنى آخر وهو ضمانه - عَزَّ وجَلَّ - صياتهم.

والثانية: إنَّه يلزم من عصمة الشخص ترك الأعمال المحرَّمة عليه، كالمعاصي المحرَّمة في كُلِّ الشرائع، والأعمال التي يحرم ارتكابها في الشريعة التي يتبعها، إذن فلا تنافي عصمة نبِيٌّ ممارسة العمل الجائز في شريعته لشخصه خاصَّةً، وإنْ كان محرَّماً في الشريعة السابقة عليه، أو سيكون محرَّماً بعد ذلك.

الثالثة: المراد من المعصية، التي يُنْزَهُ المعصوم عن ارتكابها هي: العمل الذي يُطلق عليه مصطلح (الحرام) في الفقه، أو ترك العمل الذي يُطلق عليه (الواجب) في الفقه. وأمَّا لفظة المعصية وما يرادفها أمثال الذنب، فإنَّها تُستعمل فيما هو أوسع من ذلك بما يشمل (ترك الأولى) وممارسة مثل هذه الذنوب لا تنافي العصمة.

الأسئلة:

- ١ - كيف يمكن إثبات صيانة الوحي من أي خلل أو تشويه؟
- ٢ - ما هي مجالات العصمة الأخرى غير مجال صون النبي في تلقي الوحي وإبلاغه؟
- ٣ - من أي طريق يمكن إثبات عصمة الملائكة؟
- ٤ - ما هي الآراء حول عصمة الأنبياء؟ وما هو رأي الشيعة الإمامية في هذا المجال؟
- ٥ - عرّف العصمة، واذكر لوازمه.